قصة قصيرة

البدون

الجزء الأول

إدريس علي

تيه

وسراب . لا مرشد ولا طريق . نحن والمجهول . غالبا ما نضل ونيأس ثم نسترشد بنجمة أو بصيص ضوء بعيد . صحراء شاسعة بلا ماء ولا ظل . أعشابها بلا ثمر . ليلها موحش . نهارها جحيم . والأقدام التي سبقتنا شقت طرقا محتها الزوابع . . وأجسادنا جفت من الحرارة . فالشمس ترسل أشعتها ولا يعنيها أن نحيى أو نموت . .

يا للحكمة . نفط هنا بغزارة ولا نهر . والنيل نهر يصب فائضه في البحر . ونفط شحيح . ونحن أيضا فائض عمالة . عشرات من الرجال كنا . نتجه غربا . سعيا وراء رزق وفير . بيننا الحرفي وعامل التراحيل والمثقف والمسجون واللص . ونساء من الغجر الرحل اللائي يتنقلن بين الدلتا والصعيد والقنطرة شرق . تزوج منه جابر في السنوات التي أعقبت نكسة يونيو

وطريق محفة وصول . وطوله ... التعب والشرطة والشمس . وفي الطريق تعرفنا على أبناء الحظ العاثر ورجال المغامرة . أحيانا يجمعنا الحدود بسياراتهم السريعة . فنجري نتعرق . نخشى . لكنهم يكونون عائدين بعد أن يلتقطوا القربان غجرية شابة أو غلاما حديث السن . والشمس ترفض القرابين . عروس النيل في الماضي . وضحايا النفط الآن . رحلة المستحيل . من مدن الصعيد بدأنا على التراحيل تسطيحا فوق القطارات ثم سيرا من مطروح للسلوم فطرق الاستراحة . والأبعد في السكن . بمغاري طرابلس وكان الشرطة تعود ... الحظ من حيث جاء . من يصل يملك والأقوياء يواصلون والأذكياء يدخلون المدن ويعملون

وإشاعات من هنا وهناك (خد يا وله . الحق يا وله) ولجمعنا جواز سفر حادثة لأحد أبناء الوطن العائدين . بالعربي ... وسموا باسمه

بصخرة . الموت بعا أوقلا مثل الحشرات بعيدا عن الوطن . تركناه دون أن نلمسه وطرقنا

سألني صابر عن القاتل . . من يكون ؟ رجحت أنه لص . أو رفيق طريق اختلفا معا في قسمة مال مشترك . أو طالب ثأر تتبعه وتصيده هنا . أو . . فاطمني صابر . . لأنني مسطح التفكير مثل سالم أبو عوضين . لأن القاتل الحقيقي هو النفط . النفط القاتل . عنوان فيلم . أيكون قد اشتد به الظمأ فارتوى من بئر نفط ؟ صابر هذا غريب الأفكار . لعل بأناقته وثقافته ونظارته السميكة الإطار . سألته عن هدفه من هذا السفر المضني فلم يرد . تعرفت به في قطار الأحد المتجه للسلوم . ونحن نختبئ قرب السلك الشائك لنعبر ليلا . سمعنا أنينا وبكاء سمعنا مصدره فعثرنا على سالم أبو عوضين - ثالثنا - يتمرغ داخل حفرة ويلطم خديه كشابه

يا راجل عيب . استغفر . الدنيا وحالها . الدوام لله . بعد مجهود نجحنا في فرملة دموعه تشكيات الأطفال . وأخبرنا أنه لم يفقد عزيزا . فعلام ألم هذه المناحة ؟ حين اطمأن لنا . روى مأساته باكيا : بالأمس كان معه ألف دينار وحقيبة مليئة بالهدايا . . حصاد عامين في الغربة والشقاء . وما أن عبر السلك . ودخل حدودنا حتى وقع في كمين حرس حدود بسبب الظلام . أوسعوه ضربا وصادروا كل ما يملك من مال وهدايا وتركوه الشقاة بدلا من السجن والبهدلة . المسكين كان يحلم بحواطين أرض وجاموسة . لاشيء الآن . كله ضاع . حربت . . وواسيته وانفعل صابر وطالبه بأن يشكوهم . لأنه تعرض للسلب وليس المصادرة .

- معقول اشتكي الحكومة يا بيه . . ؟

تمادى . داق . حاول صابر أن يقنعه وحرك الركة الساكنة في عقله . بلا فائدة (قسمتي كده وأنا أصلي رضى خمس) تركنا الموقف وكادا أن يتماسكا ومسه صابر

غير في داخله . رجعونا الخيل سنة أولا . لم يقر وتمسكت بما استجدنا مرافقتنا لكي يجرب حظه مرة ثانية . فقبلناه على مضض لأنه أصبح بعثنا على زادنا القليل . بعد عبورنا الحدود نظر صابر للشرق متنهدا كعاشق يفارق حبيبه مضطرا .

بعد نحو أسبوعين من السير المتقطع وقفنا جوعى متعبين عند مفارق طرق . ننتظر حلول الظلام لندخل المدينة متسللين . واجهنا من ينادي ويطلب منا التجمع . . (تعال يا مصري) جائع أو عطشان بدأ بالتقدم . . ومن خلفه خرجنا من المكامن واحدا خلف الآخر . وبتردد وخوف كنا نجالس بدويا . . قدم لنا الماء المثلج والطعام والشاي والدخان . فجاء المزيد من الحياء . ظل ينكت باللهجة المصرية وعرفنا بنفسه الطويس مولود الشيالي . أشهر واحد في الصحراء بعد عمر المختار الذي دوخ الطليان . وأنا دوخت دولتين . . هربت الماشية من عندكم والدخان من عندنا . . وبت الآن مكتفيا بعمل الخير . وحدثنا عن حبه لمصر . . النيل . النهر . اللف في الموسكي وبولاق . والأهلية المتلحة . والأهرام . . وزوجته فلاحة مصرية من الشرقية . وبلد كاد أحد يعرفنا هنا تجار . أنت حداد . . والآخر سيفض وأشار في قائلا : لا أرتاح لأمثالك . . أنت لا هنا ولا هناك . . وتبدو كالشعراء أخشاك ثم أقسمك لأنطي يضحك شيئا يضحك في المستقبل . ثم ألقى قبلة مرتا على كتف صابر وأنت أستاذ لن يعجبون الطيب . . فلا نفع منك . تعاملني بالتعقل فأخشاك كعادة لأصوات . أو أسلمك الشرطة .

طول الطريق وهو يوصينا بالإخلاص وإدراك وعن لكم . كنا نشد المأوى والأمن . . فلم نسأله عن وجهتنا أو نساومه على أجر . وانتهى بنا في حوش كدسنا فيه مع آخرين أتى بهم قبلنا . ثم جاء برجل عرفنا به . الحاج محمد القرياني أشهر مقاول في البلاد وهو من سيعمل معه . فدخل بيننا . فاحصا . سائلا . محاولا إيجاد الرعي والسن والأقدمية فاختارنا الطريق . لأن الأطفال ... باحثة . اختت منه الكلمة فأدركنا أنه مجرد سمسار استبدل الماشية بالبشر . فربح من ورائنا بغير سفر ولا مكابدة . وعلى كل

في رفع اختيار سألته المقاول متفرعا

- شن تبوا تخدموا ؟
- كل حاجة .
- باهي . . وقداش تأخذوا ؟
- اللي تشوفه
- باهي . . ولوا تسبوني بلادكم واحلفوا على القرآن

تعارفنا وتصارحنا وحلفنا . هو أيضا يحب الأزهر والحسين وأم هاشم . رجل ذكي ... الردود ولا يغضب أحدا . يسألك عن موطنك . إن كنت من بحري قال كرماء . من قبلي قال رجال . في اليوم التالي وزعنا للعمل قبل أن نرتاح من عناء السفر . استوقف صابر وسأله متعجبا

- وأنت شن يا شاب . . هيقعد استخبارات ؟

فزع صابر وضحك هو . . ثم عينه كاتبا للأجور ومراقبا للوقت . لبثنا معه عامين وشهورا . . نشيد البيوت والمدارس ونتنقل بين المدن من بنغازي شرقا إلى سبها جنوبا . كلنا نعمل ونحلم ببيت أو عروس أو قطعة أرض . وأبدا أبدا . لم يفتر في عقدنا بأننا سنتعرض لعملية خداع بشعة . فذات ليلة . ونحن في سبات عميق . بعد عمل يوم شاق . داهمنا الجنود ودفعونا للترحيل بالقوة :

- انهض يا مصري
- أوراقك
- أركب يا غوال
- ملعون والديك
- قدم علينا البلاد .
- سكر فمك

ثوى . تحبح . ترجوه وصابر يتقدم ... المسئول . فيتساءل حكمدار القوة بازدراء

- خير الغوال إهذا ؟

فبسط له الأمر . يوالي . نحن . نحال المتعمر . الأمانة . الأجرة . وأننا عملنا وكدحنا ومدخراتنا كلها في حوزة الحاج وأننا لن نرحل طبعا بدون الفلوس

- فلوس شن . جبتوه معاكم من بلادكم ؟

جئنا مفلسين . هذا صحيح . لكننا شيدنا . نحنا . عرقنا . وافترضنا أن العقد الواجبة والخوار . فما جواز سفر . بالتأكيد القرياني لا يدري . وسيهرع لنجدتنا بمجرد وصول الخبر إليه . وللخمس من الأمور أن يبحث عن بحيرة فوقعني قائلا

- ومن يدري عليه ؟

كيف لا يدري وهو من المشهورين . لا أتصدق أنها مؤامرة الحاج الذي حلف معنا . وكان يزعم أنه ما يحب المصري رغم طيبته هو ... للعلاقة . التي انتما بزعمه . لم نناقشه في الاتفاق الذي أبرمه معنا . يدفع لنوحيد ربع الأجر يوميا . والباقي يظل مدخرا معه حتى النهاية تعلنا معه يسلمه لنا نقدا في السلوم بعد أن وصلنا سيارته لكي يحمينا مصاعب الطريق . في رأيه أن سيولة المال في الأيدي تشجع على لعب الميسر والسرقات وشراء ما ليس له لزوم وقد طمأننا . القسم الذي ... على كتاب

رسوم نجيب

... وبقايا الحسابات التي بحوزة صابر وعشرات المعرفات الذكية التي تسلل بها إلى قلوبنا وحديثنا بها . وانفتح فيما بعد ، ثم ما يعنينا ليس هو ترك الصلاة . إنما حسن الظن بالغير لدرجة العبط . والشائعات تدور بيننا ، بأن هذه عادة الطيبين مع الذين يأتون (سيكلاوية) مثلنا ليسوا أول الضحايا ولا آخرهم . وأن ثمة اتفاقا في هذه الحالات بين الأمور والمقاول . وكما يحلو لنا أن يسالم أبو عوضين . كان قد قرر الرحيل منذ شهر تقريبا فظل العرباني يراوغه ويتهرب منه ... كلمة واحدة لم تتغير . باهي [illegible] ... المرة الجاية وفتى .

ولهذا [illegible] لم يأت قط حتى وقعت الكارثة . فأصبح سالم ضحية الظروف للمرة الثانية . [illegible] ركبنا الناقلات . ألقوا سالم وسط [illegible] والناقلة تسرع بنا . تنهب الطريق حاملة في جوفها العديد من الرجال العطشين الذين [illegible] في [illegible] . وبيننا ثلاث غجريات [illegible] الشول والمعرفة والدعارة . ومعنا [illegible] سيدة قاهرية حبيبة . فعمت لنا [illegible] خلال الطريق .

رغم

انطلاق المعدين على قائهم وشكرهم المتواضع بما كان وسيكون . فالسيدة تجهل ما بنا وتروى بلوتها لتعمق الجرح النازف في قلوبنا . فنشعر بفداحة ما نزل بنا . وبما فإن صمتت . أطلقت العنان لدموعها . وأبكتنا معها . وإن تكلمت . لعنت أهلها الذين باعوها بجهاز تسجيل وكمية من الملابس النايلون وجنيهات لم تزد على المائة . وسلموها لغريب يجهلون عنه كل شيء .

بهرهم بسيارته الفاخرة التي فرحوا بركوبها كالأطفال . فلا تدرى أي نوع من الزواج تم بينهما . أدخلها بلاد [illegible] واكتشفت هناك أنه بلا عمل ولا تجارة . وأنها ليست أول زوجاته [illegible] . وحين شبع منها . حاول تقديمها لذوى النفوذ في السهرات الخاصة . ولما أبت [illegible] . أخذ [illegible] عليها لطمات

الشرطة طلبا للحماية . فتنكر لها ولم يكن معها ما يثبت حجتها . فأبعدوها [illegible] لهذا الأهل ولهذا الفقر الذى شردها . وشردنا . ونظرت إليها فئة بعدم تصديق . وصابر أصغى إليها باهتمام . وشملها [illegible] . وذلك حين سادت بنا [illegible] بالقول الخشن والحركة العامرة . فهى [illegible] ومكانها أميرة في قصر وليس هنا بالطبع . ومن البداية والسائق والحارسان يديرون حولها . نظلوا الناقلة لتصبح في نهاية القول . ثم توقفوا بأعذار مختلفة . مرة زيت ومرة ماء أو بنزين . وفي إحدى الوقفات . جاءنا الحارس منبسطا

- الأجوان تغير

شكرناه بامتنان رغم الحرج الذى لن تداويه آلاف التحيات .

- والست هانم مسترحة ؟

تعالت القهقهات واستقرت النظرات المحدقة على وجه السيدة الأبيض الدسيم [illegible] المصرية الحبيبة . فتجرأ السائق وقفز حالما على حافة مؤخرة الناقلة طالبا من الركاب ومستفسرا عن احوالهم . وخصها بسؤال ملحا : ما تبغيش أي خدمة ؟

موقف مريب وسؤال محشو [illegible] تحت الغجريات غيظا وحسدا . وقلقت الرجال في حيرة وسألني صابر بعصبية عن معنى رفرفهم الحكر [illegible] في ادراك ؟

لست مكلفا بمتابعة تحركاتهم [illegible] وتصرفاتهم . أمور أخرى تشغل فكرى وتقلقني . الأهل والعروس المنتظرة وفي سالم أبو عوضين الطويل الوعد تسار البشر الذى باعنا لمن هو أخس منه . العرباني الخطير الذى أثرى من ورائنا مستغلا ضعف موقفنا . وأفكر في الذين ضلوا وهلكوا أو صرعهم حراس الحدود من الدولتين [illegible] جثث مجهولة طوتها رمال الصحراء . لا أسبلت جفون أصحابها ولا بكاهم مخلوق . أو يقتلوا أو يسجنوا [illegible] مكان آخر فوق سطح كرتنا الأرضية المكدودة المليئة بالخادعين واللصوص والكلاب [illegible] وهنا أيضا مقاولو الفار من [illegible] البشر [illegible] يأكلون عرق الكادحين [illegible] هنا [illegible] فنحن تحت رحمة من تمتلك . وصابر هنا [illegible] في [illegible] غضب

أو يشق . لكن ذالا وقفوا حطا ، نحن الآن عند نقطة مجهولة في الصحراء بين طرابلس وبنغازي . بعد مغيب الشمس . والظلام زاحف نحونا ولا ذبالة ضوء تبشر بالأمل . حتى النجوم حجبتها السحب . منذ وقت طويل قطعنا هذه القفار سيرا حتى تورمت أقدامنا وكدنا نهلك . وكنا نحلم بغد أفضل . فلعنا ضحية جشع الآخرين . فهل لنا حقوق أحط من هذا الهروب ؟ وهذه العادة القاهرة . كيف هانت على أهلها فباعوها بجهاز تسجيل ؟ فهل بدأنا في تجارة الرقيق الأبيض باسم الشرع ؟

— أهلا وسهلا يا عرب .

السائق ورفيقاه يرحبون بنا . أمرونا بالنزول للاستراحة والتهوية فأطعنا مترددين . جلبوا واشعلوا نارا وضعوا على جمرة برادا للشاي وجلسوا يتحدثون ويتسامرون . فالظلام مشجع لارتكاب أبشع الجرائم . فهل نحن مقبلون على أمر جلل ؟ هب أنهم [illegible] علينا أطفؤوا النار وأبادونا فهل تقوم الدنيا من أجلنا وتقعد ؟ لا شيء بالمرة . لن يدري بوجودنا أحد ولن يعطي [illegible] . يجعل المسئولون [illegible] في المزارع والشوارع . من يحتج أو يطالب بحق . تلفق ضده تهمة السرقة أو سب الزعيم أو معارضة السادة . وفي أقل الأحوال [illegible] يسلم للشرطة لكي يرحل بلا حقوق [illegible] رأسي فكرة شريرة . أن أهرب وأعود للعربات [illegible] في عروق رفيقه [illegible] وأشرب حتى أرتوي وأستريح . [illegible] أفكاري لصابر الذي كان منشغلا بالسيدة ويرفض أن يتركها بمفردها لأي سبب

ألحوا علينا بمشاركتهم . فجلسنا في شبه دائرة نحتسي الشاي على الطريقة البدوية . بينما اعتصم سالم بالناقلة . ولابد أن أفكارا مدمرة كانت تراوده مثلي . والسيدة جلست فوق [illegible] ماء فتسابقوا على [illegible] والفوز برضاها . [illegible] حظها . من يملكها فاز بالدنيا . وأعجب كيف باعوها بثمن بخس ؟ ولو عدنا بها لعصر الحواري لدفع الأمراء والملوك [illegible] ذهبا . ولجربوا [illegible] حيث نحن [illegible] توسعوا في تكريمنا بالطعام والدخان ثم بزجاجتي ويسكي . [illegible] والنشوة . [illegible] السائق [illegible] كأسه [illegible] بسرعة وقال للسيدة [illegible]

— على الطلاق [illegible]

ابتسمنا نحن وضحكت هي لأول مرة [illegible] السائق [illegible] من الشراب [illegible] الرجال [illegible] ما كان [illegible] ما لا قوة [illegible] ما نحن فيه الآن [illegible] ورجاله [illegible] رحلة مصرية من الريف . وأنا عندي صديق في [illegible] الأسلاك [illegible] جوازات السفر وتوحدت اللهجات . مرت بنا إحدى ناقلات الترحيل العائدة من الشرق فاستنطرها على بعد [illegible] فجميع الذين رحلوا قبلنا تعرضوا لتفتيش دقيق في جمرك مساعد وبوابة الحدود

المصرية . ومن يخالفه الحظ هنا يسوء [illegible] هناك . [illegible] ونشط في [illegible] معا يشق الطرق . ونسلك المجريات [illegible] تحت فضاء [illegible] فاستطار السائق [illegible]

— [illegible]

[illegible] ولم يذق طعامه ولا شرابه

[illegible] معروف

— لابد [illegible]

— [illegible]

هم الذين [illegible] بأطواق النجاة [illegible] الأمل . وبالذات الصحراوات . والذين لم [illegible] وهم [illegible] . أما نحن . ضحايا الهروب [illegible] من ريح الأحمر . كان كافيا لتوصيلنا [illegible] بيوتنا في أمان

ووضعوا خطتهم على أساس أن نمر أولا [illegible] جمرك مساعد بدون تفتيش ثم لن يسلمونا [illegible] ذلك لبوابة الحدود المصرية كما هو متبع [illegible] سيتجهون بنا بعيدا عن البوابة [illegible] ناحية سيدي عمر . وسيفعلون ذلك لأنها أولا [illegible] وتستحق المغامرة [illegible]

[illegible]

البقية في العدد القادم

شركة مصر لأعمال الأسمنت المسلح

التي كانت إحدى الشركات الرائدة لبنك مصر

يسعدها أن تتقدم بأخلص آيات التهاني إلى أسرة

بنك مصر

بمناسبة مرور

٦٠ عاما

على إنشائه

راجية له دوام التقدم من أجل رفاهية شعب مصر وتدعيم صرحها الاقتصادي